دريفوس

ماذا أصاب فرنسا فى عام ١٨٩٨م ؟ إنهم يرفضون التحدث فى هذا الموضوع وعندما يتحدثون ، يكون مدار الحديث عن الخزى والعار الذى أصابهم ، فى المكاتب – فى المقاهى فى الشوارع يتبادلون الكلمات والضرب بالعصى ، وفقدت المحبة معناها وتهشمت عرى الصداقة ، تفككت الروابط الأسرية لأتفه الأسباب ، وتزايدت حالات الطلاق ، وأصبحت المبارزات حوادث يومية تنتشر بين النواب ، رجال الصحافة ، رجال الجيش وأصابت الحمى رجال الصحافة حيث تقرأ على الدوام فى صفحات الجرائد الدعوة إلى الفتنة والاغتيال .

وبالنسبة للعالم الخارجى الذى لم يستطع تفهم حقيقة ما يجرى فى فرنسا إلا أنهم أصبحوا على قناعة تامة أن فرنسا على وشك البدء فى حرب أهلية .

نعم ، من المؤكد أن فرنسا أصيبت بالجنون .. ولكن ما السبب ؟ ! ، ما هى الدوافع الخفية وراء هذا الصراع الذى أوشك على تمزيق البلاد ؟ قد تدهش عندما تعرف أن السبب فى كل هذا الصراع رجل ؟ مجرد رجل واحد ، وبسبب هذا الرجل ، دار الصراع الرهيب إلى الحد الذى سلب رئيس الجمهورية ووزراءه النوم ، ووضع البلاد على حافة الهاوية .. إنه دريفوس

ولكى تفهم حادثة دريفوس على حقيقتها يجب أن يمتد الحديث إلى ظروف هذا العصر ، حيث تعرضت فرنسا لواحدة من أعظم الهزائم التاريخية ، إنها حرب ١٨٧٠م التى مازالت عالقة فى الأذهان عندما فقدت

فرنسا الألزاس ولوريان ... ومنذ بداية عام ١٨٩٠م وحلم واحد ، يداعب خيال الفرنسيين ... الثأر ... الثأر .. ومن الطبيعى أنهم وضعوا كل آمالهم فى الجيش .

استرهازى

بدءًا من المدرسة وفى أصغر قرية فى البلاد ، المؤسسات التعليمية وفى الكنائس .. فى كل ١٤ يوليو من كل عام يتزاحم الجمهور لمشاهدة العرض العسكرى ، يهتفون ويتصايحون عند مشاهدة المدرعات ، وعند مرور جنود الخيالة وجنود المشاة بملابسهم الزاهية ، وهم يمشون وراء جنرالاتهم وقادتهم وفى الآحاد يتجمع الناس من كل الطوائف ، وهم يرتدون أجمل ثيابهم لسماع الموسيقى العسكرية لرجال الجيش ، وهم يعزفون أحلى الألحان فى الأكشاك الخشبية المخصصة لهم .. وكل فتاة صغيرة تخفى حلمًا جميلاً ، ورغبة جامحة فى الفوز يومًا ما بالزواج من ضابط بهى الطلعة .

أنشئ داخل صفوف هذا الجيش الذى نال إعجاب الوطن ، والذى لقى عناية خاصة من جميع الحكومات المتعاقبة ، أنشئ قسمًا جديدًا للاستخبارات مارس أعماله فى سرية وبصفة غير شرعية تحت اسم مستعار بأنها إدارة للاحصاء التى أدارت أعمالها كملحق منعزل . يقبع فى شارع الجامعة ، ويتبع وزارة الخارجية وتحددت مسئوليات هذا القسم فى تتبع الإشاعات وكتابة التقارير السرية .

كانت المهمة الأساسية الموكولة لهذا القطاع تتبع الأحداث فى السفارة الألمانية ولتنفيذ المهمة لجأ رجال القسم إلى حيلة غاية فى البساطة ، حيث استعانوا « بمارى باستيان » التى تعمل خادمة ، تذهب صباح كل يوم إلى السفارة الألمانية لتنظيفها ، ولما كانت طبيعة عملها تقتضى دخول السفارة فى وقت مبكر من صباح كل يوم ، وهو وقت تكون السفارة خالية من الموظفين ، وبذا أتيحت لها الفرصة لتجميع القصاصات الورقية الممزقة الملقاة فى سلال المهملات وتسليمها إلى قسم الاحصاء الذى يتولى تجميعها من جديد وقراءة مضمونها وبذا يمكنهم اكتشاف أسرار الألمان .

الآن تجمعت جميع عناصر اللعبة فى مكانها الصحيح ، وتحت تأثير

إحساس عام أرهق الجميع إثر خيبة الأمل المريرة ، التى أصيبت بها فرنسا عام ١٨٧٠م ، شعب متلهف للثأر ، قامت الأمة بأكملها بمنح توكيل خاص للجيش لأداء هذه المهمة الصعبة ، هذا الجيش الذى يضم بين جوانحه إدارة جديدة للاستخبارات . تتولى مهمة تجميع الأخبار من هنا وهناك ، وتؤسس عملها على نظام تجريبى ، مبنى على الملاحظة الدقيقة والمتابعة الصارمة ويعمل فى صفوف هذه الإدارة امرأة قام الجهاز بإقحامها على السفارة الألمانية لتجميع القصاصات الورقية .

المعتقل الذى سجن فيه دريفوس

فى نهاية ١٨٩٣م تسرب القلق فى نفوس رجال هذه الإدارة ، حيث أشارت القصاصات الورقية المتجمعة من سلال النظافة الخاصة بالسفارة الألمانية عن وجود صلة وثيقة بين الملحق العسكرى الألمانى شوازر كوبن وبين أحد الضباط الفرنسيين الذى يقوم بإمداده بمعلومات ، رسالة واحدة سببت هذا الإزعاج وهى مرسلة من الملحق الألمانى إلى نظيره الإيطالى ومؤرخه بتاريخ ٤ أبريل ١٨٩٤م ، وفيما يلى مقدمة هذه الرسالة التى حفظها فيما بعد أفراد الشعب الفرنسى عن ظهر قلب .

صديقى العزيز .

أقدم لك اعتذارى بسبب اضطرارى للسفر السريع قبل مقابلتكم ، مرفق مع هذا الخطاب ١٢ خريطة مفصلة (لنيس) قدمها لى هذا النذل (د) لتسليمها لك ...

ثار الموظفون الفرنسيون وانتابهم نوبة من الهياج يوجد بينهم خائن .. لكن من هو .. من هو النذل (د) .

فى نهاية سبتمبر ١٨٩٤م تصاعدت الأحداث بصورة مزعجة عندما تسلم القائد « هنرى » نائب رئيس إدارة الاستخبارات رسالة عن طريق مارى ، عين الإدارة الفرنسية فى السفارة الألمانية مكتوبة على ورق رقيق جدًّا أصفرَّ اللونِ تعلن الملحق العسكرى الألمانى بضرورة الانتظار ، لاستقبال الرسالة القادمة التى تتضمن العديد من الموضوعات ذات السرية البالغة ، خاص فيما يتعلق بنظام الفرامل الهيدروليكية للمدفع ١٢٠ ، وكذا معلومات غاية فى الأهمية عن جنود التغطية القابعين على الحدود الألمانية والخطاب خلو من التوقيع ، ولكنه لا يخلو من دليل دامغ ، نظرًا لأنه مكتوب بخط اليد ، الأمر الذى يسهل فيما بعد اكتشاف كاتبة .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر بعض التفاصيل حول القومندان

« هنرى » ... إنه صورة جميلة لقائد عسكرى . بلغ من العمر ٤٨ عامًا أنذاك .. التحق بالجيش كمجند بسيط ولكنه تسلق بصعوبة سلم الترقى خاصة بفضل ما أبداه من بسالة وشجاعة نادرة أثناء حرب ١٨٧٠م ، من المؤكد أنه كانت تنقصه الثقافة ويفتقر إلى الذكاء ولكنه عوض هذا النقص بتمتعة الخارق بالانضباط العسكرى والاستقامة المطلقة والطاعة العمياء لأوامر رؤسائه .

أسرع القومندان « هنرى » بإعداد العديد من الصور للوثيقة وارسلها إلى جميع أقسام الجيش مع التوصية بضرورة بذل الجهود للبحث عن الضابط (د) ويحتمل أن يكون هو كاتب الرسالة – أو له ارتباط بهذه الوثيقة .

وفى رئاسة الأركان ثارت الشكوك حول ضابط هو فى الواقع ليس بشخصية لامعة ولكن تحوطه بعض من الغموض الأمر الذى أثار الريبة حوله .

فى هذا العام .. أتم « الفريد دريفوس » عامه الرابع والثلاثين ، وهو ضابط يهودى من الألزاس ولد فى مولبوس يمتلك والده مصنعًا ناجحًا لغزل القطن ، وفى الوقت الذى قام فيه الألمان بضم الألزاس فى عام ١٨٧٠م ، كان « دريفوس » فى عداد هؤلاء الذين سيهجرون كل شىء من أجل البقاء فى فرنسا ، وتحت تأثير الآراء الوطنية لوالده انخرط « دريفوس » فى سلك العسكرية حيث عين برتبة ملازم وبدأ نجمه فى الصعود ، وفى سنة ١٨٩٠م أشار تقريره السرى إلى ما يلى (القيادة ، ممتاز ، المظهر ، ممتاز ، ملاحظات عامة ، ممتاز ، ضابط كفء يعمل بجد ونشاط فى خدمة أركان حرب) وسارت الأمور فى نهجها الطبيعى حتى عام ١٨٩٣م ، وفيها ترقى الكابتن « دريفوس » وانضم إلى أركان حرب الجيش الفرنسى ، وعلى المستوى الشخصى تميزت حياته بالنجاح

والاستقرار ، تزوج عام ١٨٩٣م بعد قصة حب من « لوسى هادامار » وهى فتاة جميلة ابنة أحد الجواهرجية الأثرياء وأهداها بمناسبة الزواج مهرًا معتبرًا ورزق منها طفلان « بيير » ، « جان » ولكن فيما يتعلق بشخصية « دريفوس » فكانت مخيبة للآمال ، فهو بارد العواطف وأثناء الدراسة الجامعية كان انطوائيًّا ، ولم يستطع تكوين أصدقاء ، وفى فترة عمله فى الجيش كان مكروهًا من زملائه ، عانى من قصر النظر واضطر فى نهاية الأمر إلى استخدام نظارة طبية – له صوت مبحوح رتيب ، وخلاصة القول إنه كان كضابط ناجح بدرجة ملفتة للنظر ولكن أحدًا لا يحبه .

« أميل زولا » الذى أصبح فيما بعد أشهر المدافعين عنه وصفه بأن « دريفوس » يعطى الانطباع بأنه بائع للأقلام له وجه كئيب . مظهره هزيل ، لا يوحى للثقة .

وبالرغم من هذه العيوب والنواقص إلا أن الكابتن « دريفوس » كان مفعمًا بالأمل ، وسجل فى مذكراته (المستقبل مشرق . والأمور سهلة ، وكل شىء فى الحياة مفعم بالبهجة والسرور) .

ولكن القدر يخبىء أمرا آخر ، عندما قام القومندان « هنرى » بمضاهاة الخطوط واكتشف تطابقًا فى بعضها .

– إذن .. إنه « دريفوس » .. ولا غرابة فى ذلك ، إنه ينطبق تماما مع شكوكى السابقة .

أرسل « هنرى » تقريره على الفور إلى رؤسائه الجنرال « جونز » وجنرال « بواديفر » وأرفق على الفور تحليلاً مقارنًا للخطوط ، وبادر « هنرى » بإرسال تقرير مماثل إلى مكتب الاستخبارات إلى الجنرال « دى باتى دى كلام » وباختصار جهز ملفًا يقدم كل الأدلة التى لا تحتمل أى شك بإتهام « دريفوس » .

وفى وزارة الحربية اقتنع فى الحال الجنرال « مرسيه » بصحة الاتهام ، وفى محاولة منه لإرضاء ضميره طالب بإجراء تحليل آخر للخطوط على يد

خبير متخصص ، وجاءت نتيجة التحليل على الوجه التالى (يوجد العديد من أوجه الاتفاق بين الخطين ، كما يوجد أيضًا العديد من أوجه الاختلاف) وقرر الجنرال « مرسيه » حسم الموضوع بصفة نهائية وأرسل فى استدعاء خبير ثالث « بيرتيللون » مبتكرعلم أقيسة الجسم البشرى خاصة فيما يتعلق بتحقيق شخصية المجرمين ولكنه مع ذلك ليس خبيرًا فى الخطوط ولكن ذلك لم يمنعه من إبداء رأى قطعى فى الموضوع (لا يوجد أدنى شك فى تطابق الخطوط) .

وهكذا تم حسم الموضوع بصفة قطعية ، وقرر جنرال « مرسيه » توقيع القبض على « دريفوس » ، ورسخ فى ذهنه صحة الاتهام .

وفى ١٣ أكتوبر ١٨٩٤م تم استدعاء « دريفوس » إلى الوزارة الحربية ، وهناك قام القومندان « دى باتى » بإملاء السطور الأولى من الرسالة المشئومة على « دريفوس » وقرر الضباط المجتمعون تماثل الخطوط ، وعندها صاح « دى باتى » فى صوت مسرحى .

— « دريفوس » ، أنت مقبوض عليك بتهمة الخيانة العظمى .

وانفض الاجتماع بسرعة وغادر الجميع الحجرة تاركين « دريفوس » وحيدًا .. الذى أذهلته المفاجأة .. وفهم بسرعة المطلوب منه عندما لمح مسدسا ، تركه الضباط على المنضدة .

ساد المكان الهدوء لمدة خمس دقائق عاد بعدها الضباط الذين تجمعوا خارج الحجرة فى انتظار ما تسفر عنه الأحداث وقابلهم « دريفوس » فى ذهول قائلاً .

— أنا لن أقدم أبدًا على الانتحار ، ويمكننى تقديم الدليل على براءتى .

سيق « دريفوس » إلى السجن ، وتم حبسه فى سرية مطلقة ولم تحط عائلته علمًا بما جرى له ، كما أن أغلب الوزراء كانوا على جهل تام بما يدور فى الخفاء ، وداخل الزنزانة لم يستطع « دريفوس » أن يفهم شيئًا مما أصابه ،

ومنعت عنه الزيارة بصفة نهائية ، وفى كل يوم يقتحم القومندان دى باتى الزنزانة ليجبر « دريفوس » على كتابة العديد من الأوراق وهو فى أوضاع مختلفة يأمره بالكتابة مرة وهو واقف ، ومرة وهو جالس ثم وهو مضطجع وهو مرتدى قفازاً بيده ، وبعدها يقوم بإرسال جميع هذه الأوراق إلى لجنة التحقيق العسكرية .

تم تشكيل لجنة من ثلاثة خبراء متخصصين فى الخطوط وجاءت النتائج متضاربة حيث أثبت اثنان أن الخطوط متطابقة بينما أكد الثالث العكس .

لا شك أن الوضع شديد التعقيد والأدلة غير مؤكدة الأمر الذى أوقع الجميع فى حيرة شديدة ، وحتى هذه اللحظة لم يكن أى من وزير الحربية ومعاونيه أو رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية على علم بما يجرى فى الخفاء .

ولكن فى ١ نوفمبر ١٨٩٤م اندفعت عجلة الأحداث بسرعة ، لدرجة لم يستطع معها أحد إيقاف الاندفاع والتتابع السريع للأحداث ، ودفعت بالجميع إلى حافة الهاوية ، بدأ ذلك عقب ظهور مقالة بقلم « إدوارد درومو » صدرت تحت عنوان مثير ، خيانة عظمى – القبض على الضابط اليهودى « دريفوس » ، وتضمن المقال هجومًا مثيرًا على الضابط « دريفوس » الذى باع أسرارًا عسكرية هامة للألمان .

من هو « درومو » كاتب الافتتاحيات ، متعصب شديد التعصب ضد السامية ، أصدر منذ سنوات كتابًا أحدث دويًّا هائلاً تحت عنوان « اليهود فى فرنسا » ، وداوم على كتابة سلسلة من المقالات تشن هجومًا صاعقًا على اليهود ، وأعلن صراحة أن أى كارثة لابد وأن يكون وراءها اليهود .

فى البداية تتبع الناس المقالات فى دهشة ، وبعد فترة بدأ بعض الناس فى الاقتناع وعلى استعداد لتقبل أفكار كاتبهم الجرىء ، وسرى الهمس بين صفوفهم إذا كانت فرنسا خسرت الحرب فى عام ١٨٧٠م ، فلابد

من وجود مسئولين وراء هذه الهزيمة ، وفى الحال منحهم « دورمو » الإجابة الشافية .. إنهم اليهود .

سجل « دورمو » فى مقالة ١ نوفمبر ملاحظة مثيرة ، تشير إلى وجود ضابط يهودى يبيع الأسرار إلى الألمان علق جمهور القراء بأنه لا غرابة فى ذلك ، إن هؤلاء اليهود لا انتماء لهم للوطن ، ويفعلون أى شىء من أجل اكتساب المزيد من النقود .

ولكن كيف توصل « دورمو » لهذه المعلومات ؟ ، كيف توصل إلى أسرار لا يعرفها الوزراء أنفسهم ؟ لا يوجد غير رجل واحد ، إنه القومندان « هنرى » ، هو الذى اتصل برجال الصحافة ولما كان على علم مسبق بعداء « دورمو » لليهود فهو على ثقة تامة من ظهور مقال يتسم بالإثارة .

وفى هذه المرة أسقط فى يد رجال الحكومة الذين ترتعد فرائصهم خوفًا من حدوث صدام مع رجال الصحافة ، ولذا قرروا بسرعة إجراء تحقيق قضائى سريع مع « دريفوس » .

عهد بالتحقيق إلى أورمشفاليه واستغرق التحقيق شهرين وفى النهاية استقر على مكتبه تقريران ، الأول (دريفوس على علاقات متعددة بشخصيات متباينة تعرف عليها بعد الزواج ، وهو كثير الاتصال بالدوائر اليهودية ، يعيش حياة منحلة) ولم تنكشف الخديعة التى وقع فيها المحققون إلا بعد فوات الأوان عندما اتضح فيما بعد أنهم قاموا بإجراء تحرياتهم عن شخص خطأ ، حيث أتموا تحرياتهم حول سراب مزيف ، قاموا بالتحرى عن « دريفوس » آخر ، إنه « كاميل دريفوس » صاحب السمعة الرديئة والفاجر الذى انتحر فيما بعد .

أما التقرير الثانى فيشتمل على نتيجة البحث الذى قام به اثنان من خبراء الخطوط قام باستدعائهم أورمشفاليه ، والغريب أن أحدهم أثبت تطابق الخطوط بينما أثبت الثانى براءة « دريفوس » :

اكتفى المحقق بنتائج هذه التقارير ، أو اعتقد أن ما لديه من براهين يكفى لدفع النتيجة النهائية وأضاف فى النهاية رأيه الشخصى قائلاً :

(دريفوس شخصية ذات مدارك واسعة يتمتع بذاكرة قوية ، يتقن العديد من اللغات الأجنبية ، والأكثر من ذلك موهوب دمث الأخلاق ، لين العريكة ، سلس القيادة ، بل ويمكن القول بكل وضوح أنه مجامل بإفراط) .

وهكذا استغلوا أدبه الفرط كبرهان ودليل على الخيانة ، لا شك أنه أمر خطير ولكن الأمور سارت بالفعل على هذا النحو ، وفى ١٨ ديسمبر ١٨٩٤م وقف « دريفوس » أمام مجلس عسكرى ، وانعقدت الجلسة بطبيعة الحال فى سرية وبلا جمهور ، وبدا « دريفوس » متصلبًا ومع ذلك ظهرت عليه علامات التكبر والتعاظم ، وتحدث بصوته الواهن الجاف وأعلن براءته ، كان ثابتًا واثقًا من نفسه ، وخرج صوته هادئًا بلا سخط ، أو شعور بالنقمة أو الإحباط :

استمر « دريفوس » فى مرافعته الطويلة دون أن يقاطعه أحد ، واتضح للجميع أن دلائل الاتهام غير مقنعة وأحس القضاة بذلك .

وبالرغم من عدم قناعة القضاة العسكريين بصدق التهمة الموجهة لدريفوس ، إلا أنهم كانوا واقعين تحت تأثير ضغط خارجى ، ففى الليلة السابقة لصدور الحكم ، أرسل لهم دى باتى بناءً على أوامر من وزير الحربية ملفًا سريًا للعرض على هيئة المحكمة ، تضمن الملف الرسالة السرية الشهيرة وبعض الوثائق الأخرى الأقل أهمية ، وقرار الاتهام الذى أصدره دى باتى ، وكتاب توصية للقضاة بضرورة إدانة دريفوس فى القضية المعروضة .

وفى ٢٢ ديسمبر ١٨٩٤م أصدرت وزارة الحربية فى باريس قرارًا بإدانة الفريد « دريفوس » وتجريده من الرتب العسكرية ، والنفى خارج البلاد مدي الحياة ، وهذه أقصى عقوبة ذلك لأن القانون الصادر فى ١٨٤٨م الغى عقوبة الاعدام فى الجرائم السياسية .

ولاقت الفكرة الاستحسان لدى الجميع ذلك لأنه كما سيتضح فى أقوالنا

فيما بعد أن أحدًا لم يعرف بمحتويات الملف السرى الذى تلقاه القضاة ، وظل مجهولاً ومخفيًا عن الناس ، وهكذا ترسخ فى أذهان الناس أن دريفوس خائن لبلاده .

ومن جهة أخرى وقع « جون جورى » فى حيرة شديدة لدى سماعة بالخبر ، وكذلك « جورج كليمنصو » (الذى أصبح فيما بعد مدافعًا قويًا عن دريفوس) شعر بخيبة أمل مريرة .

وفى ٥ يناير ١٨٩٥م أقيم الاحتفال بتجريد « دريفوس » من رتبه العسكرية ، احتفال شؤم ترك آثاره السيئة على نفوس جمهور المشاهدين ، تعلقت أنظار أهل باريس بالمدرسة العسكرية ، كان الصباح باردًا ، غابت فيه الشمس ، وفى فناء المدرسة تجمع أكثر من أربعة آلاف جندى ليكونوا معًا ما يمكن وصفه بطابور للخزى والعار ، ظهر « دريفوس » فى تمام الساعة التاسعة صباحًا محاطًا بأربعة من الضباط ، ليقف فى وسط المربع الضخم الذى تكونت أضلاعه من العساكر المتجمعة فى فناء المدرسة ، سار « دريفوس » فى خطوات ثقيلة بطيئة آلية ، ووقف فى المنتصف أمام جنرال قائد المجموعة ، والمسئول عن تنفيذ الحكم ممتطيا جواده والذى صاح بصوت جهورى .

(الفريد دريفوس باسم الشعب الفرنسى .. نقوم بتجريدك من جميع رتبك العسكرية) .

اقترب منه أحد صف الضباط وخلال دقائق مرت على الجمهور ، وكأنها ساعات طويلة تعلق الضابط بملابس الكابتن المطرود . وانتزع القبعة العسكرية ، والشارات الثلاثة المزينة ، وانتزع شارات الأكتاف وحل الزرايز وخلع الإشارات من الأكمام ومن البنطلون ، ثم انتزعوا السيف من غمده ، وبإشارة باردة من الجنرال قاموا بكسر – وتحطيم السيف .

لم يحرك « دريفوس » ساكنا طوال المدة السابقة ووقف متصلبا فى مكانه . وبين الفينة والأخرى كان « دريفوس » يصيح – أنا برىء .. أنا برىء ..

ولكن صوته كان جافا .. باردًا .. بلا شخصية .

بعد الانتهاء من مراسم هذا الاحتفال الحزين .. انشغل الجميع فى البحث عن الطريقة المناسبة لتنفيذ عقوبة النفى اعتاد الفرنسيون حتى تاريخ توقيع العقوبة على « دريفوس » أن يتم التنفيذ فى نيو كاليدونى ، ولكن المسئولين عن التنفيذ وجدوا أن النفى فى هذه المنطقة يعتبر ترفيهًا لا يستحقه دريفوس ، ولهذا السبب ومن أجل « دريفوس » .. من أجل « دريفوس » وحده صوت نواب البرلمان على قانون جديد يسمح بالنفى فى جزيرة الشيطان فى جوانا وهى إحدى المستعمرات الفرنسية فى أمريكا الجنوبية حيث أقيم له سجن مخصوص .

جزيرة الشيطان هى جزيرة صغيرة مساحتها ١٢٠٠م طولاً ، ٤٠٠٠م عرضًا . عبارة عن صخرة تنمو فيها بطريقة عشوائية مجموعة من أشجار جوز الهند ، وفى هذه الجزيرة يتم تجميع مرضى الجذام والبرص ، سارع المسئولون بمصلحة السجون الفرنسية بإقامة زنزانة محاطة بأسوار عالية ليكون فى النهاية حجرتين ضيقتين ، كانت الأسوار عالية إلى الحد الذى يمنع رؤية الشمس إلا بصعوبة بالغة وتفتق ذهنهم لإقامة نظام خاص . خاص جدًا بحيث تظل جميع تحركاته مهما بلغت تفاهتها تحت نظر وسمع حراسه وبحيث لا تتيح له أى فرصة للتحدث مع أى شخص أيًّا كان .

ونقدم ملخصا لحياة « دريفوس » من لحظة سجنه ، يعيش وحدة قاتلة . لا حديث أو كلام مع أى شخص وعندما يتحدث إليه شخص ما فيكون للتأنيب ، والتوبيخ ، والحراسة مفروضة عليه بصرامة ، وتعرض « دريفوس » لأسوأ أنواع المعاملة ، وصدرت الأوامر بمنعه من الاتصال بالعالم الخارجى ، وسمح فقط لأفراد عائلته بإرسال الخطابات له بشرط أن يقتصر الحديث عن الأسئلة الشخصية وباختصار شديد فرضت رقابة على جميع الرسائل الواردة إليه .

انقسمت فرنسا بأكملها إزاء موضوع « دريفوس » إلى فريقين ما بين مؤيد ومعارض ، وتصارعا بقوة على مرأى ومسمع من العالم ، واحتدم النزاع إلى حد تحطيم عددًا من الشخصيات السياسية البارزة وإسقاط الوزارات ، وبالنسبة « لدريفوس » .. ظل طوال هذه الفترة قابعًا فى هدوء مطبق فى منفاه تحت الحراسة المشددة وانقطعت صلته بالعالم الخارجى ، ظانا بأنه أصبح نسيًا منسيًا وأن أحدًا لا يفكر فيه .

ناضل الأخوة الثلاثة « ليون » — « جاك » — « ماتيو » ، لإنقاذ سمعة أخيهم « دريفوس » من أجل تشكيل لجنة ، لإعادة النظر فى القضية وبذلوا فى سبيل ذلك الكثير من المساعى ، وأرسلوا التماسًا لرئيس الجمهورية الفرنسية الذى رفض الالتماس بسبب غموض عناصر الطلب وراسل الإخوة الثلاثة إمبراطور ألمانيا راجين منه الإعلان ببراءة « دريفوس » ملتمسين صدور إعلان من المانيا بأنها لم تتلق أى معلومات من « دريفوس » ، ومن البديهى أن الإمبراطور لم يحرك ساكنًا ولا شك أن صدور إعلان بهذا الشأن من جهة المانيا سيثير الكثير من الشكوك من جانب فرنسا .

كان الإخوة الثلاثة على ثقة تامة من براءة أخيهم وأن الأمور لا تسير فى مسارها الطبيعى ، ولكنهم لا يملكون الأدلة الكافية ، ومع ذلك تغيرت الأمور بصورة مفاجئة بدءًا من ١ يوليو ١٨٩٥م عندما عين القومندان « بيكارت » رئيسًا لمكتب الإحصائيات .

القومندان « بيكارت » رجل له شأن ومقام رفيع ، وهو شخصية ذات وزن وثقل ، واسع الصدر حكيم ثاقب الفكر لا يصدر قرارًا إلا بعد دراسة مستفيضة متأنية .. ضابط مجد مطيع غاية فى الانتظام ، ومن جهة أخرى كان على قناعة تامة شأنه شأن معظم الناس بالجرم الذى وقع فيه ، « دريفوس » إلا أنه مع ذلك كان صاحب ضمير حى ، ضمير حى إلى أقصى الحدود .

وبمجرد استلامه لمقاليد وظيفته الجديدة طلب الملف الخاص

« بدريفوس » ووضعه أمامه ، وظل يقلب الأمور فى حيرة وتردد ولكن الأمور سارت فى اتجاه آخر ، واتخذ تفكير « بيكارت » نحوًا آخر ، عندما تذكر السيدة التى دستها المخابرات الفرنسية فى السفارة الألمانية ، والتى مازالت تؤدى عملها بكفاءة ، وفى مارس ١٨٩٦م تلقى بيكارت قصاصات ورقية ممزقة من السفارة الألمانية رسالة مضغوطة (رسالة مستعجلة ترسل بالهواء المضغوط) وصلت الرسالة إلى « بيكارت » ممزقة بعناية إلى ٣٢ قطعة صغيرة سارع بإعادة ترتيبها ولصقها وبعد الانتهاء من قراءتها قفز « بيكارت » من مكانه لهول المفاجأة .

– ياللفظاعة .. يوجد بين صفوفنا جاسوس آخر .. إنه مجرم آخر غير دريفوس .

كانت الرسالة تتضمن السطور التالية :

– سيدى .. قبل كل شىء أنا فى انتظار رسالة أخرى تحتوى على تفاصيل أكثر دقة من تلك التى وصلتنى فى يوم سابق حول السؤال الذى لا يزال معلقًا دون إجابة واضحة ، وبناء عليه أرجو ملحًّا إفادتى كتابة ، هل يجب الاستمرار فى إقامة العلاقات مع R أو يجب التوقف) .

كان الكتاب صادرًا من مكتب الملحق العسكرى الألمانى شوارزكوبن ومعنونا إلى ضابط فرنسى ، القومندان « ايسترهازى » . شارلى والسن ايسترهازى .. القومندان فى الفرقة ٧٤ مشاة سيىء السمعة . يعانى بصفة دائمة من أزمات مالية ، على علاقة مشينة بعشيقة ماجنة ؛ مقامر مدمن للخمور ، دائم ارتياد أماكن اللهو ، ضعيف الانتماء الوطنى وفيما يلى نماذج لبعض مكاتباته : (نحن الجنرالات .. مجموعة من المهرجين) ، (نحن خاضعون بالكامل لإرادة الألمان الذين حاصرونا فى أماكننا لنقبع فيها لا حول لنا ولا قوة) .

طلب « بيكارت » الملف الخاص بأسترهازى الذى وصله فى الحال ،

ويضم بين أوراقه مجموعة من الخطابات التى سبق أن كتبها « استرهازى » بخط يده ، وأسرع على الفور فى دراسة محتويات الملف إلا أن الأمر لم يستغرق سوى دقائق معدودة هتف بعدها صائحًا .

– الخط .. إنه نفس الخط .. إنه خط الرسائل الصادرة من أيستر هازى ، يتطابق تمامًا مع الرسالة المشئومة التى حوكم بسببها دريفوس .

وأدرك « بيكارت » على الفور أن القدر حمله بمسئولية خطيرة .. إنه يمتلك الآن بين يديه دليل البراءة « لدريفوس » ، وإنه الوحيد الذى يعلم هذه الحقيقة ، وأرسل على الفور نماذج من رسائل « استرهازى » إلى خبراء الخطوط (بعد إزالة اسم كاتبها) والذين سبقوا لهم توجيه الاتهام « لدريفوس » وفى كل مرة تلقى الإجابة التالية .

– ولكن لماذا تعاد لنا رسائل جديدة مسجلة بخط « دريفوس » !! وهكذا زالت كل الشكوك ، وفى الحال كتب « بيكارت » رسالة مطولة بهذه المعلومات الجديدة إلى جنرال « جونز » ، ولكنه تلقى ردًّا فاترًا لا يتفق مع توقعاته وخابت كل آماله .

يجب أن تكون على ثقة من ظنونك ، كما لا يجب الاعتماد على الانطباع الأول ، ومن الضرورى التصرف فى هذه الأمور الخطيرة باحتراس ، الحذر .. الحذر هى الكلمة التى أوصيك بها ، والتى يجب أن تضعها دائما نصب عينيك .

ولكن « بيكارت » قابل الأمور بعناد وصلابة وطلب مقابلة جنرال « جونز » .

– سيدى الجنرال يجب إجراء تحقيق مع « أيسترهازى » ، إنه بلا شك خائن لبلاده .

وأجابه « جونز » : الآن .. « بيكارت » – أنت الآن فى موقع

المسئولية .. أبواب المستقبل مفتوحة أمامك على مصراعيها .. وأنا أراه مستقبل مشرف وبناء عليه أرجوك .. استمع إلى جيدًا .. الحذر .. الحذر .

ومع ذلك أصر « بيكارت » على موقفه .. وفى هذه المرة ظهرت علامات الغضب على وجه جونز .

– ما الذى يضيرك فى بقاء هذا اليهودى التافه فى جزيرة الشيطان .

– ولكن إن آجلا أو عاجلا ستظهر الحقيقة وسأبذل قصارى جهدى لكشف الحقيقة .

– إذا لم تنبس بلفظ فإن أحدًا لن يعرف شيئًا ، ولكن هذه الحقيقة التى اختفت بين جوانح رئيس الأركان ، بدأت تنكشف رويدا رويدًا للرأى العام .

وفى ١٥ سبتمبر ١٨٩٦م ظهرت جريدة البريق الفرنسية وقد تصدرها العنوان الرئيسى (قرار الإدانة « لدريفوس » يصدّر بتوجيهات سرية) ، وتضمنت المقالة العديد من الأدلة التى تثبت أن المحاكمة تمت بطريقة صورية وأن الحكم صدر بناء على خطاب توصية تلقاه القضاة بطريقة سرية اثناء جلسات المحاكمة .

أحدثت المقالة تأثيرها المطلوب وكان لها دوى هائل وأثبتت بما لا يقبل الشك ، عدم سلامة إجراءات المحاكمة وضرورة إعادتها .. وهكذا عادت قضية « دريفوس » إلى الأضواء مرة أخرى .

أجرى « بيكارت » تحقيقا سريعًا للكشف عن المصدر الذى أفشى بسر المحاكمة ، الذى اتصل برجال الصحافة ، وسرعان ما تدخلت السلطات العليا ، وأصدرت أوامرها بإيقاف التحقيق . ولكن « بيكارت » واصل تحرياته للحصول على أدلة الاتهام « لإسترهازى » ، وللمرة الثانية تدخلت السلطات العليا .. لا تحقيق حول موضوع « إسترهازى » ، استمر « بيكارت » فى عناده وأصر على مداومة البحث والتحرى حيث رفض ضميره بقاء برىء بين جدران السجن بينما يظل المجرم حرًا طليقًا .

وقررت السلطات فى هذه المرة التصرف فى هذا الشأن بمعرفتها ، حيث أصبح بيكارت فى نظرها مصدرًا للقلق والإزعاج . وأجمعت الآراء على ضرورة التخلص منه ، وفى ١٦ نوفمبر ١٨٩٦م أعيد مرَّة أخرى إلى مكتب الإحصائيات ، حيث أحيط باحترام عظيم وتم تكليفه بمهمة ذات شأن هام فى الجبهة الجنوبية فى تونس ، وشغل مكانه القومندان « هنرى » الذى انغمس فى العمل بمجرد استلامه بمهام منصبه الجديد .. ووقع فى بعض الأخطاء عندما ساهم فى تبرئة إستر هازى ، وتأكيد الاتهام على « دريفوس » . ووقع أيضًا فى خطأ تشويه وتلويث سمعة « بيكارت » .

كيف سارت الأمور على هذا النحو ؟ هل كان « هنرى » متواطئًا مع رؤسائه ؟ هل كان غافلاً أو ماهرًا أو حاذقًا . يدير الأمور ببراعة وإتقان ؟ هل كان يظن أنه بتنكره للحقائق الواضحة للعيان إنما يؤدى واجبه .. ما دام رؤساؤه يؤكدون بإدانة « دريفوس » ، فلابد أنه مجرم يستحق العقاب هكذا دون أن يبدى أى محاولة لكشف الحقائق !! ربما كان « هنرى » يعمل على حماية الخائن تحت اسم الوطنية !! قد يبدو ذلك أمرًا غير معقول أو غير منطقى ولكن هكذا كانت تسير الأمور فى قضية « دريفوس » .

فى هذه الأوقات كانت معظم الحقائق الخاصة بقضية « دريفوس » خافية عن الرأى العام ، واعتقدت الأغلبية بجرم « دريفوس » وأن الحكم صدر بناء على توصية من الجهات العليا ، ولكن اسم « استرهازى » ظل مجهولاً بالنسبة للجميع .

أصيب « بيكارت » بالسأم والملل من مهام منصبه الجديد وانتباته الهواجس والمخاوف على حياته ، وهكذا قام بتسريب ملف القضية عن طريق أصدقائه ليقع فى النهاية تحت يدى « كيستنر » الذى كان يشغل منصب نائب الرئيس لمجلس الشيوخ .

والواقع أن عائلة « دريفوس » هى التى ساهمت بشكل كبير فى إذاعة اسم « استرهازى » ، تم ذلك بطريقة غاية فى الطرافة عندما برزت فى أذهان أخوة « دريفوس » فكرة غريبة بطبع صور عديدة من الرسالة المشئومة ، وقاموا بأنفسهم بتوزيع هذه النسخ فى الشوارع على عامة أفراد الشعب ، واستمروا فى أداء هذه الوظيفة بنشاط محموم ، تدفعهم رغبة عارمة مجنونة باحتمال أن يتعرف أحد من أفراد الشعب على خط كاتب هذه الرسالة ، والواقع أنهم فازوا بنتيجة أكثر غرابة تفوق الخيال حيث جاءت المفاجأة من حيث لايتوقع أحد . من « بوليفار مونتمارتر » ، من « دى كاسترو » أحد أصحاب البنوك من ذوى السطوة والجاه .

– نعم .. إننى أعرف صاحب هذا الخط .. أعرفه معرفة جيدة .. إنه أحد عملائى .. قومندان « استرهازى » ..

كتب « ماتيو دريفوس » رسالة مفتوحة إلى وزارة الحرب موجهًا فيها الاتهام إلى « استرهازى » وفى هذه المرة أصبح التراجع أمرًا صعبًا .. ودارت العجلة باندفاع إلى الأمام وفقد الجميع السيطرة على الموقف وتم التحقيق مع « استرهازى » الذى وجد أن الهجوم خير وسيلة للدفاع عن نفسه ، وصرح للصحف بالعديد من التصريحات الصاخبة مدافعًا عن شرفه الذى تلوث بفعل حفنة من اليهود .

وعهد بالتحقيق إلى جنرال « بيليو » وهو جنرال شجاع كان على قناعة كاملة من نزاهة القضاة السبعة ، واستبعد تماما أن يكون خطأ ما قد وقع فى الحكم ، واستخلص من ذلك أنه لا يمكن توجيه الاتهام إلى « استرهازى » وقرر بضرورة التحقيق مع « بيكارت » الذى وقع وفقا لظنونه فى خطأ جسيم وأوصى بضرورة القبض على « بيكارت » .

ولكن حدث ما لم يخطر على بال أحد حيث صاحب هذه الفترة تحرك فى ضمير الرأى العام ، الذى بدأ فى التساؤل حول صحة الاتهام الموجه

إلى جاسوس آخر وثار نقاش عنيف فى مجلس النواب وفى محاولة لطمأنة الجميع ، وقف رئيس الوزراء ميلين بين أعضاء المجلس ليصرح بثقة .

– أعلنها أمام المجلس بكل وضوح وصراحة الكلمة الحاسمة والفيصل النهائى فى هذا الموضوع ؛ لا وجود على الإطلاق لأى خطأ فى قضية دريفوس .

وصفق الجميع ، وطرحت الثقة برئيس الوزراء على المجلس الذى منحها له على الفور بإجماع الآراء فيما عدا ثمانية عشر صوتا .

ومع ذلك ظلت قضية « دريفوس » عالقة فى بعض الأذهان ، حدث ذلك فى يوم ١٠ يناير ١٨٩٨م عندما استدعى مجلس الحرب ثلاثة من خبراء الخطوط الذين اثبتوا بكل ثقة أن كاتب الرسالة المشئومة لا يمكن أن يكون « استرهازى » ، وتبين فيما بعد وللأسف الشديد فى وقت متأخر جدًّا أنهم كانوا واقعين تحت تأثير ضغوط خارجية ، وفى اليوم التالى ١١ يناير تم تبرئة « استرهازى » بإجماع الآراء .

وفى هذه المرة تمكن رئيس الوزراء من النوم بعمق حيث نجح أخيرًا فى غلق ملف قضية « دريفوس » ، واستطاع وءد الاتهام الموجه إلى « استرهازى » فى المهد وفى الوقت ذاته أبدى وزير الحربية سعادته البالغة بانهاء الحديث فى قضية « دريفوس » .

ولا شك أن الجميع وقعوا فى فخ سوء التقدير ، عندما انفجرت قضية دريفوس بقوة بعد مرور يومين فقط من الأحداث السابقة .

فى ١٣ يناير ١٨٩٨م تخاطف أفراد الشعب الفرنسى جريدة الفجر ، عقب صدورها وقد تصدرت مقالتها الافتتاحية مقالاً ناريًّا تحت عنوان مثير ، اكتسب شهرة تاريخية مدوية فيما بعد (أنا أتهم) وذيل المقال بتوقيع الكاتب الفرنسى « أميل زولا » .

كان « أميل زولا » آنذاك فى قمة المجد ونجحت عائلة « دريفوس »

فى إقناعه بعدالة القضية ، وأن يتدخل بكل ثقله فى خدمة الحقيقة وأثبتت المقالة عدم جدية القرائن والأدلة ضد « دريفوس » وتسريب تفاصيل الملف السرى ، توجيه الاتهام إلى « إسترهازى » — وسائل التزوير العديدة التى باشرها القومندان « هنرى » ، وقرار الاتهام الظالم ، كما طرح العديد من الأسئلة التى تبحث عن إجابة .

وبهذه الطريقة يمكن القول بكل ثقة : إن قضية « دريفوس » طرحت على الرأى العام بقوة طاغية .

وفى الحال انقسم الرأى العام فى فرنسا ، ولسنوات طويلة إلى قسمين متصارعين ، يتبادلان الاتهامات ، والحقد ، والضغينة والأزدراء ، وشاعت العداوة حتى بين افراد الأسرة الواحدة وبين الأصدقاء الذين توطدت أواصر الصداقة بينهم لأمد طويل وبين الزوجين ، ولكن فيم يتصارع القوم ؟ وعلام يتنازع الطرفان ؟

لم يكن النزاع بسبب رجل مظلوم فحسب ولكن الأكثر أهمية بسبب مبدأ وهكذا ، انقسم القوم إلى حزبين من الفلاسفة المتصارعين ، نعم إن « دريفوس » رمز للمبادئ التى يجب أن تسود هو بالنسبة لمعارضة قضية « دريفوس » عنصر غير مرغوب فيه ، رمز للفتنة ولإثارة القلاقل ، ولو سلمنا جدلا ببراءة « دريفوس » ، فإن ذلك يعنى بالضرورة وجود عدد كبير من اصحاب الرتب الرفيعة فى الجيش تشير إليهم أصابع الاتهام ، ولا يمكن التضحية بهذه المؤسسة الضرورية جدًّا ، والأساسية فى بناء الوطن خاصة فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد ، وبناء عليه فإن قضية أمن الوطن يجب أن توضع فوق أى اعتبار ، ولكن الحزب الآخر المؤيد لقضية « دريفوس » يقف على طرف نقيض مع هذه الآراء ، إنه العدل .. يوجد متهم برىء يقضى أفضل أعوام عمره حبيسًا لجدران السجن نتيجة لحكم خاطىء وهذا أمر يجب أن يوضع فى الاعتبار .. العدالة .. العدالة

المطلقة .. العدل الذى يجب أن يسود كما يجب أن تكون للعدالة الكلمة العليا ، وعند التأكد من تحقيق العدالة فإن ذلك أيضًا فى مصلحة الوطن وحتى إذا افترضنا جدلا أن رد الاعتبار إلى « رديفوس » ، قد يؤدى إلى خراب الجيش بأكمله فإن رد الاعتبار ورد كامل الحقوق إلى المواطن المظلوم يجب أن يكون فى المقام الأول .

وهكذا انقسم الرأى العام إلى قسمين متصارعين ، ومن ناحية التنفيذ اتخذ الوضع شكلا آخر .. نعم احتدم النزاع إلى حد التلاطم والهذيان وتبادل الشتائم والألفاظ القاسية ، ولكن من حسن الحظ اقتصر الأمر على الصراخ والتوقف عند هذا الحد ، دون الوصول إلى تبادل اللكمات أو الصراع الجسدى أو إلى حد التعصب الأعمى الذى يؤدى فى النهاية إلى إقامة المذابح لليهود مثلما حدث فى فترة الحكم النازى .

داومت الصحافة فى هذه الأيام على نشر المقالات النارية ضد اليهود ، والدعوى إلى الاغتيال ، وإثارة الفتنة والهياج ، وأصدرت إحدى الصحف مقالا ناريًا (يجب صلب « دريفوس » فى منتصف ميدان كونكورد فى مشهد عام ليراه عامة الشعب ، وكى يبصق كل مواطن على وجهه القبيح) ، وطالب أحد القساوسة (بقطعة من جلد « دريفوس » ليضعها على الأرض ويطأها بقدمه صباح مساء) وطرح كاتب آخر سؤالا (متى تحدث مذبحة اليهود .. نحن فى الانتظار على أحر من الجمر) .

أما بالنسبة لمؤيدى قضية « دريفوس » من غير اليهود ، فلقد تلقوا أسوأ معاملة ، هوجم « زولا » بعنف ، وأهين بشكل فظيع غير مسبوق واعتاد أفراد العائلات الراقية إطلاق اسم « زولا » على المباول ، أما الصحفى « هنرى روشيه » فقد سلك سلوكًا آخر فى شرح الطريقة المثلى لمعاملة أنصار إعادة التحقيق فى قضية « دريفوس » وطالب باستئصال جفونهم

مع تثبيت عناكب سامة فى محاجر أعينهم كى تقضم بؤبو العين لهؤلاء الحمقى .

وهكذا سارت الحياة على هذا النمط فى فرنسا واستمر ذلك لبضع سنوات ، المواجهة الشاملة بلا شفقة ولا رحمة ومع ذلك يجب الإشارة على أن هذا الصراع اقتصر فقط على الطبقة البورجوازية ، أما عامة الشعب من الفلاحين أو العمال ، ظلوا بعيدا عن هذا الصراع ، لأنهم كانوا على اعتقاد راسخ بأن قضية دريفوس لا تؤثر بأى شكل على مصالحهم الخاصة وأنه لا ناقة لهم ولا جمل فى القضية بأسرها .

تمت إجراءات محاكمة « أميل زولا » أثناء هذه الفترة من التمزق ، وافتتحت الجلسة فى ٧ فبراير ١٨٩٨م حيث قامت السلطات المسئولة آنذاك باتخاذ خطوات إيجابية فى مظاهرة لإثبات القوة .. انزلق الجيش فى مهاجمة « زولا » فى محاولة للتشنيع وتشويه سمعته ، وأدار رجال الجيش هذه المعركة بحنكة ومهارة بالغة حيث بدأ الأمر بمعاقبة « زولا » برقة واتهامه بالتسرع ، وعدم توخى الدقة عند مهاجمته لرجال مجلس الحرب ، واتهامهم بتلقى أوامر من جهات عليا وقت اصداره لقرار تبرئة « استرهازى » .. وبعدها طالب الجيش من « زولا » أن يقدم دليله وبرهانه على هذا الاتهام الباطل ، وهكذا أسقط فى يد « زولا » الذى لا يمتلك الدليل لتأكيد ظنونه وهكذا وضع « أميل زولا » فى قفص الاتهام .

ومنذ بداية جلسات المحكمة فضح رئيس القضاة مسلكه الشائن فى إدارة الجلسات ، حين عمد فى كل مرة يحاول فيها « زولا » ، أو أحد محاميه الإشارة إلى « دريفوس » إلى إسكات المتحدث ، واعتبار ذلك خارج موضوع القضية المطروحة . وهكذا أخرس الألسنة وانحصر الحديث فى قاعة المحكمة على أمور ثانوية لاتمس صلب الموضوع ، والأكثر غرابة أن القاضى منع زوجة « دريفوس » عن الإشارة إلى اسم زوجها من قريب أو بعيد .

ولكن الجلسة اشتعلت عندما صرح قومندان « هنرى » أثناء إدلائه بشهادته أنه يمتلك بين يديه أدلة الإدانة ضد « دريفوس » ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يسمح فيها رئيس المحكمة بالتحدث فى موضوع « دريفوس » دون أى مقاطعة ، ولكن « بيكارت » قاطع الشاهد صائحًا .

– هذا تزوير .. وأنت تعرف ذلك جيدًا

– أنت كاذب ..

– بل أنت الكذاب .

انفجر الهياج الشعبى أثناء وعقب المحاكمة ، وتعالت هتافات الجماهير « الموت لزولا » وفى ١٣ فبراير ١٨٩٨م صدر الحكم بالإدانة وحبس « أميل زولا » لمدة عام مع تغريمه مبلغ ٣٠٠٠ فرنك ، وبدا أن خصوم « دريفوس » حققوا النصر وأن مجهوداتهم كللت بالنجاح ودانت لهم السيطرة المطلقة وأصبحت لهم السيادة الكاملة وجبن كل فرد أن يبذل أى محاولة لإعادة الحديث فى قضية « دريفوس » .

أبعد « زولا » إلى المنفى فى إنجلترا وتم اعتقال « بيكارت » تمهيدا لمحاكمته ، وفى صفوف الجيش ، تم استبعاد انصار « دريفوس » تدريجيًّا ، إمَّا بالفصل أو التعرض للعقاب أو بالمطاردة والاضطهاد ، إنه الانتصار والغلبة لرجال السلطة والنفوذ ، وهكذا خضع كل الفرنسيين أيًّا كان المعسكر الذى ينتمون إليه .. الجميع .. كل الفرنسيون استكانوا فى هدوء فى أماكنهم ، إما فرحين بالنصر ، أو مقهورين مغمورين من تأثير الكبت والقهر .. كل الفرنسيين عدا واحد .. رجل واحد فقط .. هذا الرجل الذى قضى ثلاثة أعوام فى جزيرة الشيطان يعانى من وحدة قاتلة لا يدرى شيئًا مما يحدث فى فرنسا معتقدًا أن أحدًا لا يفكر فيه . أو فى قضيته البائسة .

وفى ١٨٩٨م أعلن عن إجراء انتخابات جديدة للمجلس التشريعى ، والتى تمت دون حدوث تغيير ملحوظ فى أعضاء المجلس ، وفى ٧ يوليو

أجاب « كافاجناك » وزير الحربية الجديد على الاستجواب المطروح فى المجلس أمام الأعضاء المغلوبين على أمرهم ، وطرح دليل الاثبات على تورط « دريفوس » فى جريمة الخيانة ، وأعلن عن ثلاث وثائق ، تدينه اثنتان منهما تقدمان وثائق لا يمكن أن ترقى إلى مستوى الإثبات ، وثالثة مزورة بمعرفة « هنرى » الذى رقى مؤخرًا إلى رتبة كولونيل .

ومع ذلك ظل فى فرنسا .. رجل واحد يعرف كل الحقائق .. إنه « بيكارت » .. « بيكارت » الذى حافظ على إصراره وعناده ، والذى قرر أن يحتاز كل العقبات وأن يتحمل كل العواقب كى تظهر الحقيقة ، وقرر أن يرسل خطابًا مفتوحًا إلى وزير الحربية وتلقى « بيكارت » الإجابة فى الحال بتحويله إلى التحقيق .

كلف وزير الحربية واحدًا من أعوانه « كوجنيه » لإعداد ملف ضد « بيكارت » . وتتضمن الملف الورقة التى تم تجميعها ، والتى زعم « بيكارت » أنها مزورة ، تفحصها الكابتن « كوجنيه » بطريقة عفوية ، وبعدها امتقع وجهه ، كان ذلك بخصوص رسالة مصطنعة مكونة من قطعتين من الورق مختلفتين ، وأعيد تجميعهما بعناية بالغة .. وعندها هتف ، « كوجنيه » : إن « بيكارت » على حق .. إننا أمام واقعة تزوير .. بل تزوير متقن .

ويمكنك تخيل الحالة النفسية التى دفع فيها الكابتن « كوجنيه » عندما وجد أن الواجب يجبره بإبلاغ النبأ إلى رئيسه ، كما يمكنك تخيل الموقف فى وزارة الحربية عند تلقيها لهذا النبأ المؤسف :

قام على الفور وزير الحربية باستدعاء رئيس قسم الإحصائيات ، نهج الكولونيل « هنرى » فى مبدأ الأمر أسلوب المراوغة والإنكار ، ثم ظهر عليه علامات الارتباك والانهيار وبدأ فى الاعتراف .

– نعم إنه تزوير ، ولكن لما كانت الجريمة ثابتة بالكامل على

« دريفوس » رأيت أنه لا مانع ولا وجه للخطورة من إضافة بعض الأدلة المتقنة خاصة وأن ملف القضية كان هزيلاً لا يتناسب مع حجم الاتهام ، ورأيت من واجبى إضافة بعض الأدلة العسكرية بوضع بعض الإضافات البسيطة مجرد رتوش صغيرة ، والواقع إنك سيدى الوزير على علم تام بأن « دريفوس » مذنب و ... .

استمر الكولونيل « هنرى » فى الإدلاء باعترافاته التى اتضح منها تورطه فى جرائم التزوير ، وتزييف أدلة الإدانة ضد « دريفوس » ، كما تجرأ على إخفاء وتزوير قطع الورق الممزقة التى ساهمت فى تبرئة « استرهازى » ، ثم أقدم على تزوير الأولى التى ساهمت على تشويه وتلطيخ سمعة القومندان « بيكارت » واستعان لتنفيذ هذه الجريمة البشعة بواحد من محترفى التزوير سبق دخوله السجن لأكثر من عشر مرات فى جرائم تزوير ونصب واحتيال ، ولكن للأسف الشديد تعثر الاستدلال عليه أو إجراء تحقيق معه حيث عثر عليه بعد مرور عدة أيام قليلة مشنوقًا ومعلقا فى سقف الحجرة التى يقيم فيها . وهكذا أغلق ملف التحقيق بسرعة .

وفى صباح اليوم التالى ٣٠ أغسطس ١٨٩٨م أعلن المحقق « هافاس » الإعلان التالى .

(اليوم .. فى مقر وزارة الحربية اعترف الكولونيل « هنرى » بنفسه وبمحض إرادته أنه كاتب الرسالة المشئومة التى تسببت فى إدانة « دريفوس » ، وفى الحال أصدر وزير الحربية أوامره بإلقاء القبض على الكولونيل « هنرى » الذى سيق إلى معتقل مؤقت فاليرين) .

أحدثت هذه الاعترافات دويًّا هائلاً .. وفى خلال عدة ساعات قليلة جدًّا ، بدا وكأن الحياة فى فرنسا توقفت فجأة حتى أنصار « دريفوس » أنفسهم أصيبوا بالدهشة وتساءلوا فى حيرة ولكن لماذا تورط « هنرى » فى هذه الجرائم ؟

نعم [illegible] هذا السؤال لم نعثر على أى إجابة شافية له .. لأنه فى نفس اليوم وبالتحديد فى ظهر هذا اليوم أذيع خبر انتحار الكولونيل « هنرى » حيث وجدت جثته مسجاة فى زنزانته بعد أن قطع حلقه بموس حلاقة .

وفى خلال عدة أيام ساد الرعب فى معسكر أعداء « دريفوس » ووقع الجميع فى تيه وضلال .. سقط جميع أعضاء مجلس الحرب ، استقال الجنرال « أورشفاليه » والجنرال « بيليه » وأجبر وزير الحربية « كافاجناك » على الاستقالة .

أصيب معسكر أعداء « دريفوس » بالدهشة التىأفقدتهم السيطرة لفترة محدودة ، ولكنهم سرعان مارفعوا رءوسهم فى تبجح ، وأذاعوا لنفترض أن الاتهام الموجه « لدريفوس » . مبنى على اداعاءات كاذبة .. هذا شىء لا يهم .. ! .. مسئولية أركان الحرب الذين قدموا استقالتهم الواحد بعد الآخر .. شىء آخر لا يهم ، الوقوع فى الخطأ والإصرار على التمادى فيه شىء تافه لا قيمة له .

تعمدت الصحف المعادية للسامية إثارة الناس ونشر « شارلس موريس » نعيًا مؤثرا عن القومندان « هنرى » فى الصحيفة التى يترأس مجلس إدارتها (هذا الرجل الوطنى الذى خرج من بين صفوف عامة الشعب ، إنما وقع فى الخطأ من أجل إبراز وتدعيم مبادئ سامية . هذا الرجل العظيم الذى راح ضحية المؤامرات والدسائس .. يجب أن نغفر له خطيئته فى مقابل ما قدمه من خدمات جليلة لصالح الوطن) .

نظم أعداء « دريفوس » اكتتابًا عامًا لصالح أرملة « هنرى » ، وتم تجميع مبلغ محترم . ولكن لحسن الحظ كان لمعظم الناس رأيا آخر ، واتخذ معظم الرأى العام نحوًا آخر حيث لقى اقتراح إعادة محاكمة « دريفوس » قبولاً عند الكثيرين وفى ١٩ أكتوبر ١٨٩٨م أعلنت محكمة النقض أنها تلقت طلبًا لإعادة المحاكمة من أفراد أسرة « دريفوس » وفى مثل هذه الظروف يحتم إجراء تحقيق تمهيدى .

شخص واحد هو المطلوب فى هذا التحقيق إنه بلا شك « استرهازى » الذى تمكن من الفرار إلى هولندا فى نفس اليوم الذى انتحر فيه « هنرى » ..

وفى يوم ٣ يونيو ١٨٩٩م تم استدعاء « دريفوس » للمثول أمام مجلس الحرب فى رينيه وفى اليوم التالى عاد « أميل زولا » من المنفى، وخرج القومندان « بيكارت » من السجن ، الذى ظل حبيسًا فيه لمدة تقترب من العامين .

هناك .. بعيدًا .. فى الجانب الآخر من العالم .. هناك فى جزيرة الشيطان ، قام أحد الجنود المعينين لحراسة زنزانة « دريفوس » .. والذى ظل يحرسها لمدة أربع سنوات كاملة لم ينبس خلالها بكلمة واحدة إلى سجينه وأخيرًا قام هذا الجندى بفتح الزنزانة بطريقة مفاجئة لأول مرة .

– « دريفوس » .. اتبعنى فورًا .. أنت مطلوب فى فرنسا . وعندها فقط .. فهم « دريفوس » لأول مرة أنه لم يكن وحيدًا .. ولكن يوجد آخرون يذكرونه ويفكرون فى مأساته .

وفى ١ يوليو ١٨٩٩م وصل « دريفوس » إلى رينيه للمثول أمام مجلس الحرب .. وبدأت المرافعات فى ٧ أغسطس واستمرت حتى ٩ سبتمبر ولا شك أن اللحظة التى استعاد فيها ملابسة العسكرية لأن محكمة النقض أوقفت قرار التجريد من الرتب العسكرية منذ اللحظة الأولى لنظر القضية . كانت لحظة تاريخية مؤثرة مشحونة بالعواطف الجياشة .

ولا شك أن سنوات السجن المؤلمة تركت آثارها المدمرة على نفسية « دريفوس » ، كتب أحد الشهود ما يلى : إنه رجل بائس ، الذراعان هزيلتان ، الساقان نحيفتان تبرزان بشكل مثير للعطف من خلال البنطلون – الشىء الوحيد اللافت للنظر عيناه وهما تدوران فى حذر وخوف خلف نظارته الطبية ووجهه الممتقع الذى يشابه الموتى .

وبدأ الاستجواب ، ولاحظ الحاضرون أن شيئًا ما لم يتغير فى « دريفوس » ،

نفس التركيب الجسمانى ، ونفس النظرة المتعالية ؛ وتصرفاته العنيفة وعلى الأخص ما زال « دريفوس » محتفظًا بصوته الضعيف الجاف الرتيب ذى الرنين المعدنى .

تسبب « دريفوس » فى تكدير مزاج قضائه ، وأثار غضب خصومه ، والأسوأ من ذلك تسبب فى إثارة الذعر فى نفوس أنصاره .

وفى انتظار المرافعات ، أو بالأحرى فى غياب المرافعات حيث لم يستمع جمهور المشاهدين فى قاعة المحكمة خلال هذه الأيام الطويلة من فصل الصيف أى مرافعات ذات قيمة ، تتابع حضور الجنرالات فى زيهم المهيب للإدلاء بشهادتهم ، وتجنبوا جميعًا الغوص فى أعماق المشكلة ، واكتفوا بالإفاضة فى شرح وطنيتهم وتفرغوا فى إلقاء الخطب الرنانة الخالية من المضمون ، وأقسموا بعد وضع أيديهم ناحية القلب فوق وسام جوقة الشرف بأن « دريفوس » مذنب ، أما شهادة الجنرال « مرسيه » وزير الحربية الأسبق ، كانت ذات تأثير قوى ، خاصة فى نفوس القضاة ، وأوضح فى كلمات موجزة ومؤثرة سلامة نية رجال الجيش ، وفى النهاية أوجز رأيه فى المشكلة برمتها حين قال : إنه هو نفسه الذى أصدر قرار القبض على « دريفوس » وعليه إما أن يكون « دريفوس » مذنبًا ، وإما أن يقع الوزر عليه هو نفسه ، وإذا قام القضاة بتبرئة « دريفوس » فهذا يعنى بالضرورة توجيه الإدانة إلى جنرال « مرسيه » ، وزير الحربية الأسبق .

تولى الدفاع المحامى ديمانج الذى قدم مرافعة موجزة ، ولكنها وافية ، وتلم بجميع جوانب الموضوع إلا أنها كانت تتسم بالفتور ، وتفتقد الإثارة والحماسة ، وتحدد يوم ٩ سبتمبر ١٨٩٩م موعدًا لصدور الحكم الذى أدهش الجميع ، المؤيدون والمعارضون على حد سواء ، كان مضمون الحكم أن « دريفوس » مذنب ولكن مع وجود ظروف مخففة .

أثار الحكم الكثير من الجدل ، حيث لا يصح إلاَّ الصحيح ، إما أن

يكون « دريفوس » مذنبًا أو بريئًا . ولكن أحدًا من كبار القضاة لم يجد فى نفسه الشجاعة لإعلان الحقيقة ، إنهم بلا شك كانوا على قناعة تامة من براءة « دريفوس » ، ولكن أحدًا منهم لم يجرؤ على مواجهة رؤوسائه الذين طلبوا منهم صراحة أن يلقوا بكل ثقلهم لإدانة « دريفوس » تحت دعوى المحافظة على الوحدة الوطنية ، واختار القضاة طريقًا وسطًا للتوفيق بين الموقفين المتناقضين ، وهكذا صدر الحكم السابق الذى أدهش الجميع .

وفى ١٩ سبتمبر أى بعد مرور عشرة أيام ، وافق رئيس الجمهورية بتخفيض الحكم الصادر ضد « دريفوس » مراعاة لحالته الصحية ، وهى محاولة أخرى لاختيار الحلول الوسط ، وبهذه الطريقة يخرج « دريفوس » من السجن ، بهذه الطريقة يرتاح الجميع ، وأعلن وزير الحربية آنذاك جنرال « جاليفيه » بإغلاق ملف القضية .

ولكن الواقع يؤكد أن الملف ظل مفتوحًا ، وفى عام ١٩٠٠م صدر قرار بالعفو العام عن كل من له صلة بهذه القضية .

ولكن ظل « دريفوس » فى نظر الجميع مذنبًا ، وما زالت ذكرى اليوم المشئوم الذى تم فيه تجريده من الرتب العسكرية أمام أربعة آلاف شاهد عالقًا فى ذهن « دريفوس » ، وفى أذهان الناس أيضًا ، وإذا قدرنا أنها انمحت من ذاكرة « دريفوس » فلا شك أنها ما زالت عالقة فى أذهان الناس ، وهكذا لا يمكن تغيير هذه الصورة القائمة إلا بعد صدور قرار صريح ببراءة « دريفوس » الذى جمع شتات نفسه ، وأصدر بكل شجاعة بيانًا قال فيه :

« إن الحكومة قدمت لى الحرية ، ولكن لا شىء يرضى نفسى ويزيح المرارة من صدرى قدر الاعتراف بشرفى الذى أهين ، ولذا قررت الاستمرار فى محاولة إصلاح الخطأ الفظيع الذى وقع فيه القضاة والذى أعانى منه وأصبحت بسببه ضحية لذنب لم أرتكبه ولذا فإن لدى رغبة قوية . فى

أن تعرف فرنسا بأكملها وعن طريق حكم واضح وصريح ببراءتى ، ولن يهدأ لى بال أو يرتاح لى قلب إلا بعد أن يتأكد كل فرنسى من براءتى من ذنب لم اقترفه » .

طالب « دريفوس » برد الاعتبار ، واحتاج الأمر لبذل مجهودات أخرى استغرقت ست سنوات كاملة .

وفى عام ١٩٠٣م تعالت الأصوات مطالبة بإعادة المحاكمة ، أصدر وزير الحربية آنذاك جنرال « أندريه » (الذى لم يكن من حسن الحظ من حزب المعارضين لدريفوس) قرارًا بإعادة التحقيق .

وفى يناير ١٩٠٤م أعلنت محكمة النقض تلقيها طلبًا بإعادة المحاكمة وأخيرًا فى ١٢ يناير من عام ١٩٠٦م أى بعد مرور اثنى عشر عامًا منذ بدء نظر القضية ، وبعد فترة صمت طويلة أعلن رئيس المحكمة وسط صمت تام ساد القاعة الكلمة التى وضعت النهاية السعيدة .

(تعلن المحكمة إلغاء الحكم الصادر من مجلس الحرب فى ٩ سبتمبر ١٨٩٩م بتوقيع الحبس على « دريفوس » لمدة عشرة أعوام وتعلن المحكمة أن هذا الحكم خاطئ) .

وفى اليوم التالى ، أصدر البرلمان قانونًا جديدًا .. نعم للمرة الثانية يصدر البرلمان قانونًا خاصًا بشأن « دريفوس » ، ولكن فى هذه المدة صدر تشريع جديد بإعادة « دريفوس » إلى صفوف الجيش برتبة كولونيل وترقية « بيكارت » إلى رتبه الجنرال .

وفى يوليو ١٩٠٦م ، منح الكولونيل « دريفوس » وسام جوقة الشرف وتمت إجراءات التسليم فى فناء المدرسة العسكرية فى ذات المكان الذى سبق أن أهين فيه ، ولكن بعد مرور إحدى عشرة ونصف ، وأخيرًا انتهت قضية دريفوس .

ثبت للجميع بما لا يقبل للشك براءة « دريفوس » ، إذا كانت هناك

ضرورة لوجود برهان تكميلى ، فإن هذا البرهان جاء مؤخرًا على لسان الملحق العسكرى الألمانى « شوارز كوبن » ، الذى نطق بشهادة الحق وهو على فراش الموت .

– أيها الفرنسيون .. استمعوا لى جيدًا ... إن « دريفوس » برىء .. برىء .. برىء .

لا شك أن جميع ملابسات القضية بالنسبة « لدريفوس » أصبحت واضحة ولكنها ليست كذلك بالنسبة « لإسترهازى » ولا شك أن جميع الدلائل تشير إلى أنه مذنب ، ولكن هذه الظنون لا ترقى إلى مرتبة اليقين .

اعترف « إسترهازى » بنفسه أنه كاتب الرسالة المشئومة ويبرر ذلك بأنه أثناء فترة عمله فى الجيش كان يعمل كعميل مزدوج يقدم للألمان معلومات لا قيمة لها فى سبيل الاستيلاء على معلومات ذات أهمية قصوى للفرنسيين ، ولكن ذلك شيء بعيد الاحتمال يصعب تصديقه ، ذلك لو افترضنا صدق هذه الأقوال لما أظهر رجال مكتب الاحصائيات أى رد فعل عند اكتشافهم الرسالة المشئومة لأول مرة ، لأنهم يعرفون مسبقا بأنه عميل مزدوج ، وأن « إسترهازى » هو أحد رجالهم المخلصين ولقضى الأمر فى نفس اللحظة

ومع ذلك لو افترضنا بصحة الاتهام الموجه إلى « إسترهازى » ، فلابد من وجود شخص آخر يتمتع بمهارات فائقة فى التدريب والتمويه كى يقوم بتوجيه ومتابعة أعمال تلميذه النجيب « إسترهازى » وإرشاده وتوجيهه وإمداده بأحدث وسائل الجاسوسية والمهارات الخاصة بها .. فمن هو هذا المدرب ؟ ! .

ولا شك أن الملحق العسكرى الألمانى « شوارز كوبن » لم يكن أبدًا بالرجل البسيط ، أو الساذج كما لم يكن موظفًا تافهًا تنقصه الخبرة أو المهارة ، ولابد أنه كان يمتلك البصيرة والذكاء الكافيين للتخلص بكل هدوء من الأوراق الممزقة ، ذات الصفة السرية المطلقة ولا يلجأ أبدًا إلى

رميها فى سلة المهملات خاصة وهو العليم بوجود فتاة فرنسية تتولى تنظيف السفارة يوميًا بعد خروج جميع الموظفين .

وهناك شيء آخر مثير للتساؤل والفضول حول هذه الرسالة المشئومة التى تعلن صراحة عن الشروع فى تسليم العديد من الأسرار العسكرية فى وقت لا حق فمن هو الجاسوس الساذج الذى يقع فى خطأ كتابة رسالة بحبر عادى على ورقة بيضاء عادية وبخط يده دون بذل أى محاولة للتضليل وللتمويه لماذا أذن والحال بهذه البساطة لم يذيل الرسالة بتوقيعه !! ؟ .

إذن هناك أمور أخرى يجب وضعها فى الاعتبار ، أمور تم تنظيمها وترتيبها بعناية بمعرفة « شوارز كوبن » نفسه .

ولنتخيل معًا أن « إسترهازى » عميل الملحق العسكرى الألمانى فى الجيش الفرنسى لم يستطع تقديم معلومات كافية أو ذات قيمة ، ربما بسبب طلب معلومات يصعب الحصول عليها ، وربما أن المستشار الألمانى طلب معلومات لم يوافق عليها عميله السرى ، وهناك احتمال من تسرب الشك فى نفس « شوارز كوبن » لظنه أن عميله جاسوس مزدوج ولهذه الأسباب قرر « شوارز كوبن » التخلص من هذا العميل المزدوج وبادر على الفور بكتابة رسالة خطية مقلدًا فيها خط « إسترهازى » ثم تركها ممزقة متعمدًا فى سلة المهملات بصورة ملفته للأنظار ودون أن يبذل أى محاولة لإخفائها ، وهو العليم بوجود فتاة فرنسية تعمل صباح كل يوم داخل السفارة بفرض الإيقاع بالعميل الذى قرر التخلص منه .

ولكن تتابع الحوادث اتخذ مسارًا آخر خلاف المتوقع فى مفاجأة مدهشة عندما فوجئ المستشار بالتهمة تقع على عاتق شخص آخر وتحمل التبعة « دريفوس » وهكذا أشعل « شوارز كوبن » الفتيل فى برميل البارود ، دون إرادة منه ، وهكذا استطاع فرد واحد بمفرده أن يوقع فرنسا كلها فى مأزق

خطير ، وهكذا استطاع الملحق العسكرى الألمانى أن يحقق فى مجال الجاسوسية نصرا ، لم تستطع ألمانيا أن تحققه فى ميدان القتال .

وفى محاولة أخيرة ولتسجيل حساب ختامى لهذا الموضوع يحتمل أن ملحقًا عسكريًا مغمورًا يكون مسئولاً بغير إرادة منه عن أكثر أحداث الشغب إثارة فى التاريخ الفرنسى .

نعم .. هذا احتمال يمكن تصديقه ولكن على أى حال لا يزيد ، نظرية افتراضية ، ولا يبقى فى الموضوع كله إلا حقيقة واحدة مؤكدة .. إنها براءة « دريفوس » .